الدكتور محمد اقبال

فلسفته

معالم الوفاق والاختلاف بينه وبين فلاسفة الغرب

للسيد أبو النصر أحمد الحسيني

إن أول من لحظه التوفيق بين فلاسفة الغرب في أن يثبت بالدلائل القاطعة والشواهد الصادقة أن الانسان لا يقدر على حل العقد المستغلقة والمعضلات الغامضة في هذه الكائنات بالعقل المجرد، هو الفيلسوف الألماني الكبير (كانت). وعلى هذا أثبت كانت عن طريق فلسفي ضرورة وجود الله ولزوم الايمان به، وبرهن في مصنفه «نقد العقل العملي» على أن قواعد عقل الانسان العملي ودعائم عمله ووطائد اختباره ثلاثة: حرية الارادة، وخلود الروح، والايمان. ووضح أن الانسان لا يمكن أن يكون مسئولا عن أعماله إذا لم يكن فيها بالخيار. لذلك كان (كانت) بكشف هذه الحقائق وأمثالها في عالم الفلسفة قد قام للانسانية بخدمة عظيمة

ونحن قد أبنا لك في المقال السابق أنه على حسب فلسفة اقبال أيضاً يكون لكمال الانسان وتقدمه ثلاث دعائم: احراز الغاية القصوى من الحرية والاختيار بنيل الأنانية العظمى، ونيل الخلود باتصاف الأنانية بحالة الجد المستمر، ثم بلوغ منزلة الخلافة الالهية التي هي نهاية عليا لذلك الكمال والتقدم: فعلى هذا يتفق اقبال مع كانت في التصورات الثلاثة أساسياً، ويختلف عنه في أن ليس لدى كانت تصور الخلافة الالهية. وأما تصور (كانت) الثالث وهو الايمان فهو أساس جميع تصورات اقبال، لذلك لم يحتج اقبال إلى اثبات ضرورة وجود الله والايمان به في فلسفته كما احتاج اليه كانت، ولأن مبدأ فلسفة اقبال الأنانية المتصفة بحالة الجد المستمر. وآخر الجد المستمر الايمان كما هو أوله، لأن الانسان لا يقدم على عمل ويستمر فيه إذا لم يك مؤمناً بنتيجته ونجاحه فيه، وكذلك اقبال لم يحتج إلى اثبات قانون أخلاق خارجي كما احتاج اليه كانت في بيان نظريته الأخلاقية، لأن قانون الأخلاق عند اقبال ينجم عن ضروريات الأنانية الباطنية، فكل شيء يقوي الأنانية عنده خير وحسن، وكل ما يضعفها شر وقبيح؛ فكأن أنانية الانسان المتصفة بالجد المستمر عنده ضمنية لانتاج ذلك القانون، فلا يحتاج إلى البرهان والدليل

ويختلف إقبال عن كانت في أن اكتساب الحرية والاختيار ونيل الخلود والدوام في فلسفته ثمرة الجهد المستمر لا يفوز بها إلا الذي اتصفت أنانيته بتلك الصفة، أي الجد المستمر. فكل من رغب فيها وطمح إليها ينبغي له عنده أن يسعى لذلك بعزم وحزم لا يشوبهما على الزمن خلل ولا وهن، وأما كانت فقد تصدى لفكرة الحرية والاختيار والخلود والدوام في فلسفته ليقول إن العدل جار في الكائنات وإنه يوجد فيها المطابقة بين الأعمال ونتائجها، وبين الأمور وعواقبها

إن فلسفة إقبال فلسفة تفاؤل لأنها تخلق في الانسان الأماني تترى، وتبعث فيه الهمة القعساء المرمى، وتحفزه لبذل الجهد واستفراغ الوسع في تحقيقها بالمثابرة والمواظبة. فهي لذلك تخالف فلسفة التشاؤم التي كان أكبر أئمتها الفيلسوف الألماني شوبنهاور. كان شوبنهاور هذا متأثراً بأفكار البوذية الهندية، فنظر إلى العالم نظرة التشاؤم، وقرر أن حقيقة الكائنات القصوى هي الارادة، لكنها لا تقدر أن تملك لقصدها مشمولاً خاصاً يمكن أن يعرض عملياً في الذهن، لأن كل مشمول مثل هذا يتعالى بخارجها. فلذلك تملك الارادة الكونية لقصدها نفسها، أي هي تريد لأن تريد. هي تريد لأن تكون حقيقياً، فان كل شيء حقيقي ليس إلا الارادة المثلة. فبهذا المفهوم سمى شوبنهاور تلك الارادة «إرادة الحياة»، ورأى أنها جوهرياً شر، فانها لا يمكن أن تقنع؛ هي ألم. هي ألم غير القانع؛ وعلى هذا فالحياة حمأة الطموح الذي لا يشبع، وثورة التوقان الذي لا يقنع. لذلك كانت نهاية الانسان دائماً في الشكوى، ولن يتم له حسن الحظ أبداً. ولكن إقبالا يرى أن سوء الحظ وآلام الحياة أكثر فائدة للانسان إذ بها تربى أنانيته وتدرب، فيطأ بها أعراف المجد، ويتسور شرفات الكمال؛ ثم شوبنهاور ينكر الفردية أي وجود الأشياء المنفردة أو «الارادات المنفردة» كما يقول، ويرى أنها وهم لأنها تتوقف على الفروق الزمنية والمكانية، بينما أساس فلسفة إقبال هو الفردية

أما من يوجد بين فلسفته وفلسفة إقبال معالم المشابهة وملامح المماثلة أكثر فهو الفيلسوف الألماني الكبير نيتشه . والمزية الكبرى لنيتشه هذا بين فلاسفة الغرب أن عبقريته صبغت الفلسفة بصبغة الالهام ، ولم تكتف فى المباحث الفلسفية بانتقاد الفن ، بل أتت للعالم بمقياس جديد للحسن والقبح ، والخير والشر . وفلسفته ثمرة مزيج من أفكار كانت ، وشوبنهاور ، وداروين . فقد استنبط من نظرية العلم لكانت أن ليس هناك شىء يقال له علم ، بل كل شىء خيال ووهم ، وذلك لأن الحقيقة لا يكشف عنها بل تُخلق ، ولا يبحث عنها بل تُخترع ، وهو أيضاً قد قرر مثل شوبنهاور أن حقيقة الكائنات القصوى هى الارادة ، ولكن ليست « إرادة الحياة » كما رأى شوبنهاور بل « إرادة القوة » ، وهى عنده مصدر كل خير وفلاح كما أن « إرادة الحياة » عند شوبنهاور منبع كل شر وخسران . وما أحسن قول البعض ان ما يراه شوبنهاور شيطاناً يراه نيتشه إلهاً .

يرى نيتشه أن « إرادة القوة » هذه دافع قوىّ غريزىّ سارٍ فى الكائنات ، فهو مركز الحياة الانسانية ، بينما إقبال يرى أن مركز حياتها هى الأنانية المتصفة بحالة الجد المستمر . ولكنهما يتفقان فى أن خوض غمار الآلام ومكابدة المصائب ، ومعاناة النوازل ، مما لا محيص عنه لصعود الانسانية فى معارج الشرف ولبلوغ تقدمها غاية الكمال . ويتفقان أيضاً فى أن هذا العالم المادى هو ذريعة إلى تلك البغية ووسيلة إلى ذلك المطلب ، وأن الفن[1] يجب أن يكون ملتقى الجمال والقوة كما يتفقان فى أن فلسفة الأخلاق المسيحية غير وافية لضروريات تقدم الانسان وتسنمه ذروة الكمال . غير أن نيتشه قدح فيها قدحاً شديداً وانتقدها انتقاداً لاذعاً وصرح بأن المسيحية تدعو إلى « أخلاق العبيد » فى حين أن إقبالاً اكتفى بالاشارة إلى أنها غير مفيدة للانسانية لأنها لا تقدر على إماطة اللثام عن قواها الخفية ، ولا على الكشف عن استعداداتها المكنونة ، وذلك لأنها تدعو إلى الرهبنة وترك العالم . وبناء عليه فدعوة إقبال خلاف ذلك كما قال فى بيت ترجمته :

غص فى البحر وحارب الأمواج
فان خلود الحياة فى المحاربة

يتفق إقبال ونيتشه فى تصور كمال الانسانية ؛ بيد أن نيتشه يراه ممثلاً فى سوبرمان (أى فوق البشر) وإقبال يراه فى خليفة الله . والفرق الأساسى بين تصوريهما هو أن نيتشه ينكر وجود الله ويقول : « اقتلوا الله ! » « Alles ist erlaubt » كل شىء مباح . إن الطبيعة والدوافع الطبيعية ليست شراً . ابعدوا الحياء والكظم ! ابعدوا الأدب والتقيد ! إن أخلاق الرجل الحر ستكون الأخلاق المعبرة عن الذات حقيقة » ، وعلى هذا فسوبرمان نيتشه محصور فى نفسه ومحدود فى ذاته ، ليس لديه غاية يجرى اليها ولا هم يتفرّغ له . وأما الخليفة عند اقبال فخياله الأنانية العظمى ، أى الله ذو الرحمة الواسعة ، وصاحب العطاء المتصل ، فله عنده الدرجات العلى ، يجزى بها بما يسعى ؛ ثم سوبرمان نيتشه عارٍ عن العاطفة جافى الطبع ، شديد الوطأة ، لأن روح أفكار نيتشه أرستقراطية ، فرأى أن حقيقة الكائنات القصوى « إرادة القوة » ؛ وقرر أنها هى الدافع الغريزى الأقوى فى الانسان فعليه أن يطلبها ، ولكن هذا الطلب غير المشروط كان ينجم عنه نظام القِيَم الذى ظلت الحضارة مشتبكة فيه إلى الآن . فهنا أتى نيتشه بفكرة « وراء الحسن والقبح[1] » فارادة القوة عنده لا تعرف حدود الحل والحرمة ، والحسن والقبح ، لأن كل شىء مصدره ونهايته قوة ، عندها حلال وحسن ، وكل شىء مصدره ونهايته ضعف ، عندها حرام وقبح ، والعقائد كذلك ليست عندها متساوية متماثلة ، فالفرق الحقيق بينها ليس عندها من حيث كونها حقاً وباطلا ، بل من حيث كونها مفيدة وغير مفيدة . وهكذا شمرت أرستوقراطية نيتشه بضرورة Umwertung aller Werte ، أى تغيير جميع القِيَم ، فمثل فى آن واحد دور الفيلسوف ، والمصلح الاخلاق ، والشارع ، وخالق الحضارة الجديدة . وكان فى دور ارتقاء أفكاره الأخير شاعراً بمهمته هذه

فعلى هذا النمط وصل نيتشه إلى تصور كمال الانسانية فى صورة « سوبرمان » بازاء عامة الناس الذين هم موضع قنوطه ويأسه . فانشأ فكرته الجديدة للحضارة بتوزيع الاجتماع

(١) قد بينا رأى الدكتور فى الفنون والملاهى فى مقال تأخر نشره لمرض الأستاذ صاحب الرسالة ، وسينشر بعد فراغنا من فلسفة إقبال

(١) أى « Jenseits von Gut und Böse » ، وهو أيضاً اسم لمصنف نيتشه

الانسانى فى طبقتين متناقضتين : ذات أخلاق السادة وذات أخلاق العبيد . وقرر أن الأولى منشأ سوبرمان ، وأن لأفرادها وهم الأقوياء حق معاملة أفراد الأخرى وهم الضعفاء بالظلم والعدوان ، وإن واجب القوى فى شريعة الارتقاء وتنازع البقاء الولوغ فى دماء الضعيف وفتح جميع أبواب الجور عليه بكل وحشية ، فان السوبرمان أو الانسان القوى الكامل الصالح للحياة لا يظهر إلا بتدمير الضعيف غير الكامل وغير الصالح للحياة .

وأما طبقة الضعفاء أو « ذوو أخلاق العبيد » كما يسميهم هو فقد خلقوا لاستعمال الأقوياء فقط ، وهم موضع يأس نيتشه ، لذلك سد عليهم نيتشه جميع أبواب التقدم كما سدت ديانة البراهمة على المنبوذين فى الهند

فلذلك كان تصور الخليفة لدى إقبال خيراً من تصور السوبرمان عند نيتشة ، لأن روح أفكار إقبال الديموقراطية الاسلامية[1] فالخليفة عند إقبال شخصية محبوبة إلى جميع طبقات البشر تسعى لخيرهم ، وتسبغ من خصب طبعها عليهم وتقربهم إلى نفسها ؛ فكلما تقربوا اليها تتدرج حياتهم فى مدارج الكمال ؛ وهى تمثل اللين كما تمثل الشدة . وهاتان الصفتان لا محيص عنهما لتقدم الاجتماع البشرى . قال إقبال فى بيتين ما ترجمتهما :

اخلق من حفنة ترابك
جسما أوطد من حصن منيع
وليكن فى داخله قلب رقيق
كالنهر فى جنب الجبل الراسى

إن ما حدا بنيتشه إلى هذه التصورات الارستقراطية هو خوضه غمار الأدب اليونانى ، وهو لم يشعر بأن النظام الاجتماعى اليونانى فى هذا الأمر كان ناقصاً . فلو شعر بذلك لم يحسب العبودية كالجزء الضرورى للتمدن . فظهور سوبرمانه فى الحقيقة على حساب تلك العبودية ، وهو يحوز قصب السبق على جهود هؤلاء العبيد ، وعلى هذا فشخصيته عند فلسفة إقبال ليست بأكثر من شخصية مستجدية ؟

« للمقال بقية »

السيد أبو النصر أحمد الحسينى الهندى

(١) ليست الديموقراطية الأوربية لأن الدكتور اقبال يفرق بين الديموقراطية الأوربية والديموقراطية الاسلامية ، ونحن قد بينا الفرق فى حاشية مقالنا السابق فراجعه

اعلان

وزارة الأوقاف بصفتها ناظرة على الأوقاف الخيرية والأهلية والحرمين الشريفين تشهر فى المناقصة العامة عملية توريد وتركيب مائة كباس حديد تحت الزيادة والعجز المطلقين حسب الشروط والمواصفات الموجودة بقسم الرى والميكانيكا ، وتقبل العطاءات لغاية ظهر يوم ١٢ نوفمبر سنة ١٩٣٥ داخل مظاريف تقدم باسم معالى الوزير (قسم الإدارة) وكل عطاء لا يكون مصحوباً بتأمين ٢ فى المائة من قيمته لا يلتفت إليه ، والوزارة حرة فى قبول أو رفض أى عطاء بغير بيان الأسباب ، وعند رسو العطاء يكمل التأمين إلى ١٠ فى المائة

ولمقدمى العطاءات الحق فى حضور جلسة فتح المظاريف يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٩٣٥ من الساعة الحادية عشر صباحاً بسراى الوزارة

قلم خضير

برليشة ذهب عيار ١٤
مضمون ٣ سنوات
تستعمله الحكومات الشرقية
مكتبة ومطبعة خضير بشارع عبد العزيز بمصر